الاقليم وأثره في التاريخ

تطور العمران في العصور التي تلت القرن الثامن عشر قبل المسيح فاتفقت وجوه تطوره مع تغير الاحوال الجوية وفقاً للمبادىء التي ذكرت في المقال السابق . والمطلع على تاريخ الارض الاقليمي وتاريخها العمراني يدهش اذ يرى ان انتقال منطقة العواصف الزوبعية الى حتى البحر الابيض المتوسط حوالي القرن الخامس الميلادي وافق قيام بابل واشور وكنعان وفينيقية ، وكريت ومصر في عهدها الاخير، وميسيني وطروادة واليونان وقرطاجنة وروميه . كانت افريقية الشمالية حينئذٍ اهراء العالم . والبحر الابيض المتوسط مقرّ النشاط الانساني . ولكن هذا التغير الاقليمي الذي حل نعمة على بلدان البحر الابيض المتوسط نزل كارثة على البلدان الشمالية اذ رزحت في قبضة البرد الشديد والمطر الغزير والجمد فانقرضت الحراج واندثت المستنقعات . فهبط مقام العمران في ايرلندا والبلدان الكندناوية . وقد تركت هذه الموجة الباردة أثرها في اساطير تلك البلدان وأشهرها اسطورة تعرف « بشفق الآلهة » صوّرت فيها الارض في قبضة الثلج والجليد

في هذا العهد بلغت حضارة البحر الابيض المتوسط ذروتها . ولكنها لم تلبث طويلاً حتى جعلت احوال الاقليم تتغير وأخذت اركان الحضارة تتداعى . فقد وضع الاستاذ جوتز من خمس وعشرين سنة كتاباً بديعاً اشار فيه الى ان انحطاط الحضارة اليونانية سببهُ الحمى الملارية التي نقلت جراثيمها الى بلاد اليونان من افريقية . اما نحن فلم الآن ان منطقة العواصف الزوبعية كانت آخذة في الانتقال شمالاً في ذلك الحين ، وان حتى البحر المتوسط كان آخذاً في الجفاف فنكرة جوتز تكتسب تأييداً قويًّا . لان الانهر اذا شحَّ ماؤها وقلت عن الجريان وأصبح مجراها سلسلة من برك الماء الراكد وهي اصلح ما تكون لتولد البعوض الناقل للملاريا . والراجح ان الملاريا كانت ايضاً من الاسباب الباعثة على سقوط الامبراطورية الرومانية . ولكن لما كان المطر في ايطاليا اغزر منهُ في اليونان فظهور الملاريا وتفشيها فيها جاء في عصر متأخر عن عصر تفشيها في اليونان . ولكن اذا صرفنا النظر عن تفشي الملاريا في بلدان البحر الابيض وجدنا أن هذا الجفاف كان باعثاً على ضعف الزراعة وقلة الحاصلات

والظاهر ان الجفاف ضرب بجرانه فوق حتى البحر الابيض وبلاد العرب وسهول تركستان فكان باعثاً على هجرة القبائل الرحالة من تركستان وغزوها لبلدان اوربا كما كان باعثاً للاسلام على الخروج من الجزيرة والتوسع . ولكن هذا الجفاف في هذه المنطقة قابلهُ

تحوّل في اقليم الشمال بعث النشاط في النفوس والاجسام فانتعش عمران اوربا وهبّ سكان البلدان السكندناوية من سبات عميق فاذا نحن في عصر الفيكنغ الابطال جوّابي البحار. وزاد دبيب الجفاف الى اقليمهم رويداً رويداً فحملهم على هجرة بلادهم فاجتازت طائفة منهم الاوقيانوس الاتلنتيكي ووصلت طائفة اخرى — تحت اسم النورمن — الى صقلية

وقد كان أثر الاقليم وتغيره في حضارة المايا في العالم الجديد مشابهاً كل المشابهة لأثره في حضارات العالم القديم. ان الباحثين عن آثار المايا عثروا على هياكلهم وانصابهم في حراج غضة اشجارها مختلفة الاغصان يتبدّ الرائد في معارجها. هذه الحراج طغت على معالم الحضارة المذكورة على اثر تحوّل في الاقليم فعجز اصحابها عن ردّ طغيانها بوسائلهم الاولية

هذه السلسلة الطويلة من النتائج مستمدة من مصادر مختلفة — من الرواسب في مستنقعات الخفور (Peat تُرف) في البلدان الشمالية ومن شواطىء بحر قزوين والبحيرات المالحة في اواسط آسيا والمدن الجافة كتدمر التي كانت قائمة على ملتقى خطوط التجارة بين الشرق والغرب، ومن الاساطير المنقولة والمدوّنات التاريخية. ولكن هذه النتائج مؤيدة من بحث مقاطع جذوع الاشجار المعمرة التي يبلغ عمر بعضها اربعة آلاف سنة. فالمطر هو العامل الذي يحدد مقدار كثافة الحلقة الخشبية التي تضاف كل سنة الى جذع الشجرة. وقد عني عالم يدعى دوجلس بدرس جذوع التي شجرة وقياس كثافة حلقاتها السنوية واخرج لنا احصاءات دقيقة بنى عليها خطاً منحنياً — لتصوير نتائج الاحصاءات تصويراً جلياً — يمثل تقلب الاقليم الذي احدث الفروق المختلفة في هذه الحلقات. هذا الخط المنحني يتفق اتفاقاً كبيراً مع الخط الاقليمي المنحني المبني على حقائق مستمدة من مصادر اخرى

ففي جذوع الاشجار نستطيع ان نرى الحلقات الضامرة بسبب الجفاف التي دفعت بزور الحضارة من مواطنها الى مختلف الاقطار. وفيها نرى الحلقات الكثيفة التي تقابل عصور المطر الغزير لما بلغ ابناء اليونان ورومية ويوكاتان من ذروة عصورهم الذهبية فيها. كذلك نرى الحلقات التي تقابل عصر الجفاف الذي دفع بالقبائل الهمجية من قلب آسيا فاجتاحت اوربا وقرت في المدينة الخالدة — رومية، وحمل رجال الشمال النورمنن على ان يبدوا في مختلف نواحي الحياة نشاطاً غريباً. وفيها نرى اخيراً استقرار منطقة العواصف الزوبعية حيث هي الآن اي في شمال اوربا على نحو الف ميل الى الشمال من مستقرها التاريخي ان المناطق الاقليمية لم تنتقل انتقالاً محسوساً في الالف السنة الاخيرة. اما ما قد تمنى به الحضارة متى انتقلت فأمر لا نستطيع ان نتكهن به. ولكننا لا نستطيع ان نتصور أن تحول الاقليم يحترم حضارتنا اكثر من احترامه للحضارات القديمة — لان الاقليم لا يرحم!